إصدار
سنة
١٤٤٦هـ

وقف منارات العلم

مَقَاصِدُ قِرَاءة القُرآن الكَريم

تأليف: أ.د. عبدالرحيم بن صمايل السلمي

أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى

dr_alsolami

مقاصد قراءة
القرآن الكريم

وقف منارات العلم، ١٤٤٦هـ

مقاصد قراءة القرآن الكريم. / عبدالرحيم بن صمايل بن صويمل السلمي

المملكة العربية السعودية - جدة، ١٤٤٦هـ

٧٠ص

تصنيف الكتاب وفق تصنيف ديوي العشري:

التصنيف العام: 297 - الإسلام والديانات الأخرى

التصنيف الفرعي: 297.1 - القرآن وعلومه

التصنيف الدقيق: 297.1226 - التدبر في القرآن وأهداف قراءته

حقوق الطبع محفوظة

الإصدار الثاني

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

وقف منارات العلم

المملكة العربية السعودية - جدة - حي أبرق الرغامة

0532398193 Manarat.alelm.01@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإنَّ القرآن الكريم هو مصدر الهداية والعلم، ومنبع الخير والفلاح، وباب الطمأنينة والسكينة، وطريق الحق والإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء:٩].

ولا يمكن لطالب العلم والإيمان أن يحصل مراده ومطلوبه إلا من خلال القرآن، فهو أول العلم وآخره، ومبدؤه ومنتهاه، والعلم به هو العلم النافع، والجهل به هو رأس الضلال وأسُّ الانحراف، فالعلم النافع هو العلم الموصول بهداية القلب، ولا تحصل الهداية له إلا بالقرآن .

ولهذا كان من الضروريِّ لكل مسلم الاهتمام بالقرآن، لأنَّه الروح والنُّور، وأول طريق الاهتمام به هو قراءته وتدبره، وقد حث النبي ﷺ على قراءته؛ كما في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: (قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي عِشْرِينَ لَيْلَةً، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ)[1].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (١٩٧٨)، ومسلم في «صحيحه» برقم: (١١٥٩) واللفظ له.

وفي لفظ: (وَاقْرَإِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً، قَالَ: فَقُلْتُ: إِنِّي لَأَقْوَى عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللهِ، قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ نِصْفِ شَهْرٍ مَرَّةً، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَقْوَى عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللهِ، قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ، لَا تَزِيدَنَّ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ)(١).

وكما ورد في حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)(٢).

والمسلمون يُقبلون على قراءة القرآن الكريم في شهر رمضان خاصة، وهذا الأمر سُنَّة نبوية ثابتة، فقد كان جبريل عليه السلام يُدارس النبي ﷺ في رمضان القرآن، كما روى البخاري في «صحيحه» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودُ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيُدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجودُ بالخير من الريح المرسلة)(٣).

وكثيرٌ من النَّاس يغفل عن المقاصد العظيمة، والحِكَم البالغة، والغايات الربانية التي شُرعت من أجلها قراءة القرآن، فقد يظن بعضهم أنَّ المقصود هو التلاوة المجرَّدة

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم: (٦٩٩٩).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٨٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٦)، ومسلم في «صحيحه» برقم: (٢٣٠٨).

دون تدبر وإدراكٍ للمعاني، أو دون استشعارٍ لأثر قراءة القرآن في القلب والسلوك، ولهذا جاءت هذه المقالة لتُبرِز مقاصد قراءة القرآن، حتَّى نحقِّق مراد الله تعالى من الأمر بقراءته والعناية به.

نسأل الله تعالى أن يمُنَّ علينا بالتوفيق في البيان، وأن يجزل لنا الأجر والثواب على نشر العلم وبيان مقاصد الشرع في أحكامه، إنَّه سميع مُجيب.

المقصد الأول: تحقيق الإيمان به

يُعدُّ الإيمان بالقرآن الكريم من أعظم المقاصد التي شُرعت لأجلها قراءته، فهو الركيزة الأساسية التي يقوم عليها الانتفاع به، وهو الحد الفاصل بين المهتدين بهديه، والضالين عن سبيله.

والإيمان به يعني: الإقرار بأنَّه وحيٌ من الله تعالى، أنزله على نبينا محمَّدٍ ﷺ، وأنَّه محفوظٌ من التبديل والتحريف، وأنَّ أخباره حقٌّ لا ريب فيها، وأنَّ أحكامه واجبة الاتباع.

فالله تبارك وتعالى أنزل القرآن هاديًا للحق والخير والهدى والسداد؛ فمن آمن به هُدِيَ ووُفِّق وسُدِّد، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء:٩].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يقول تعالى ذكره: إنَّ هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمَّدٍ ﷺ يُرشد ويُسَدِّد من اهتدى به ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السُّبُل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام.

يقول جل ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضَلَّ عنها سائر أهل الملل المكذبين به)[١].

فتلاوة القرآن هي طريق الإيمان، ولا يوجد طريق صحيح يرشد إلى الإيمان سواه؛ فمن سلك هذا الطريق اهتدى للإيمان، ومن اقتفى سبيلًا غيره وقع في العماية والضلال والزلل، قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يُرشد إلى الحالة التي هي أعدل وأصوب، وهي توحيد الله تعالى والإيمان برسله)[٢].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: (ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أنَّ هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا: يهدي للتي هي أقوم، أي: الطريقة التي هي أَسَدُّ وأعدل وأصوب)[٣]؛ وما كان هذا وصفه وجب الإيمان به كله، واتباعه، والاهتداء بهديه.

ولما ذكر الله تعالى أولي الألباب من عباده؛ وصفهم بأنَّهم يتوسلون إليه، ويدعونه بعبادة عظيمة، وهي المسارعة في الاستجابة لمنادي الإيمان: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾ [سورة آل عمران:١٩٣]؛ وهذ التوسُّل منهم باستجابتهم وإيمانهم دال أنَّه عمل صالح.

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٥١٠).

(٢) الوجيز للواحدي (ص٦٢٩).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٤٨٧).

وقد أثنى الله تعالى على النفر من الجن الذين استمعوا لقراءة النبي ﷺ فسارعوا بالإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١-٢].

وأثنى الله تبارك وتعالى على نفرٍ من أهل الكتاب سارعوا للإيمان بالقرآن لمَّا تُلي عليهم؛ وكان منشأ الإيمان به عندهم أنَّه حق نزل من عند الله تعالى، فكان جزاؤهم أن الله آتاهم أجرهم مرتين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة القصص:٥٢-٥٥]، وفي هذا بيان لعِظَم المسارعة في الإيمان بالقرآن، ممَّا يدُلُّ على أنَّ الإيمان به من مقاصد قراءته الكبرى.

وقد ذكر الله تعالى في صفة المؤمنين أنَّهم: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال:٢]، وذلك أنَّ تلاوة القرآن تورث الإيمان، وتبعث الخشية، وتُرسِّخ اليقين، وتقوِّي التوكل.

إنَّ قراءة القرآن تولِّد الإيمان في القلب، إذ يجد القارئ فيه من البراهين والدلائل ما يُرسِّخ يقينه بأنَّه وحيٌ من الله، وأن أصول الإيمان حق لا ريب فيه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة:٢]، والمراد بالكتاب: أي القرآن.

وقد أثَّر القرآن في نفوس المشركين، فلم يستطيعوا إنكار ما فيه من قوة مؤثرة في البيان والحُجَّة والبرهان، بل ما فيه من قوة نفسيّة وشعورية تؤثر في نفس كل من سمعه،

كما وقع للطفيل بن عمرو الدوسي ﷺ، فإنَّه حين قدم مكة حذَّره المشركون من الاستماع للنبي ﷺ وقالوا له: (يا طفيل! إنَّك قدمتَ بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا وفرَّق جماعتنا وشتَّت أمرنا، وإنَّما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، إنَّا نخشى عليك وعلى قومك مثل ما دخل علينا منه، فلا تكلمه ولا تسمع منه، قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألَّا أسمع منه شيئًا ولا أكلِّمه).

ثُمَّ شاء الله تعالى له أن يسمع شيئًا من قراءة النبي ﷺ فاستحسن ذلك، ودخل على النبي ﷺ وأخبره بخبره وما قاله أهل مكة له، قال الطفيل: (فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليه القرآن، فقال: لا والله ما سمعتُ قولًا قطُّ أحسن من هذا ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق)[(١)].

وكما حصل لجبير بن مطعم ﷺ، فقد روي عنه أنَّه قال: (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلمَّا بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، كاد قلبي أن يطير)[(٢)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان جبير لمَّا سمع هذا بعد مشركًا على دين قومه، وإنَّما كان

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ٢٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٤٨٥٤).

قَدِمَ في فداء الأسارى بعد بدر...، فكان هذا سبب هدايته)[١].

ومن أعجب الأمثلة ما وقع للنجاشي وأساقفته، فإنَّه حين قرأ عليه جعفر بن أبي طالب ﵁ صدرًا من سورة مريم، بكى النجاشي حتَّى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مضاجعهم، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [سورة المائدة:٨٢].

قال الواحدي: (﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ يعني: النجاشي وأصحابه، قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة «كهيعص»، فما زالوا يبكون، وهو قوله: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ يريد: الذي نزل على محمَّدٍ، وهو الحقُّ، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ وصدَّقنا، ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مع أمَّة محمَّد ﷺ الذين يشهدون بالحق)[٢].

فهذه الأخبار وغيرها تدُلُّ على أنَّ قراءة القرآن تحقُّق للقارئ أو السَّامع: الإيمان به، لما تضمنه من مخاطبة النَّفس والوجدان والفطرة والعقل، ولما فيه من أنواع الإعجاز المتعددة، ولما فيه من الأمر بالحقِّ والعدل والقيم والفضائل، فيجد القارئ له من الاطمئنان والأمن النَّفسي ما لا يجده في غيره، ولذلك نجد الطفيل بن عمرو ﵁ حين

(١) فضائل القرآن لابن كثير (ص١٩٤).

(٢) الوجيز للواحدي (ص٣٣٢).

سمع القرآن قال: «لا والله ما سمعتُ قولًا قطُّ أحسن من هذا ولا أمرًا أعدل منه».

وحين قرأ مصعب بن عمير ﷺ القرآن على أسعد بن زرارة، قال من شاهده وهو يستمع: (والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله)(١).

ورُويَ مثل هذا عن عمر بن الخطاب ﷺ حين أخذ الصحيفة من أخته فاطمة، وفيها آياتٌ من سورة طه، فلمَّا قرأ صدرًا منها؛ قال: (ما أحسن هذا الكلام وأكرمه)(٢).

ولا يزال أثر القرآن مستمرًا إلى يومنا هذا، فكثيرًا ما نسمع عن أشخاص دخلوا الإسلام بعدما قرأوا القرآن، إذ وجدوا فيه ما يصرفهم عن أديانهم الباطلة، وبعضهم أقبل على قراءته بحثًا عن نقض له، فكانت قراءته سبب هدايته وإسلامه.

فالقراءة التي تحقِّق الإيمان هي تلك التي يُصاحبها تدبُّر وتأمُّل في المعاني، واعتبارٌ بالمواعظ، وامتثالٌ لما يأمر به ويُرشد إليه، فهذه القراءة هي التي تُحقِّق الغاية التي أراداها الله تعالى من إنزاله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [سورة البقرة:١٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [سورة السجدة:١٥].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٩).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٦).

وقد ذمَّ الله تعالى أهل الكتاب الذين كانوا يقرأون كتابهم دون فهم له، فلم يتحقَّق فيهم تمام الإيمان به، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة البقرة:٧٨]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يعلمون ما في الكتاب الذي أنزله الله ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه، كهيئة البهائم)[(١)].

وقال الزجاج: (ومعنى: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قال النَّاس في معناه قولين: قالوا معناه: لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة)[(٢)].

فالقرآن هو المصدر الرئيس للهداية والرشاد، كما جاء في الأثر: (وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ)[(٣)].

والتاريخ شاهد على تخبُّط كثير من النَّاس راموا الهدى بعيدًا عن القرآن؛ فهذا الفخر الرازي بعد أن أفنى عمره في الاشتغال بالكلام والفلسفات يعلن في آخر عمره أنَّه ما استفاد شيئًا، وأنَّ طريقة القرآن هي أنجع الطرق وأقوم السبل:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذَى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فيه قيل وقالوا
فكم قد رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ ... فَبَادُوا جَمِيعًا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا

(١) تفسير الطبري (٢/ ١٥٤).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ١٥٩)، وانظر: تفسير السمعاني (١/ ٩٩).

(٣) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم: (٢٩٠٦)، وقال: (هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث مقال).

وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفَاتِهَا رِجَالٌ فَزَالُوا وَالْجِبَالُ جِبَالُ

وقال: (لقد تأمَّلتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيتُ أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾، واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾، ثم قال: ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي)[(١)].

فهذه شهادة من رجل خاض وتعمق باحثًا عن الهدى في غير القرآن.

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٢٠).

المقصد الثاني: العلم بمعانيه

يعدُّ العلم بمعاني القرآن مقصدًا جوهريًا من مقاصد قراءته، فالله تعالى أنزل كتابه ليكون وحيًّا هاديًّا، فأودع فيه من العلم الذي يحتاجه المسلم في دينه ما يكون به عصمته من الزيغ والضلال، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [سورة آل عمران:١٠٣]، وحبل الله هو: القرآن، كما جاء في الحديث: (أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: كِتَابُ اللهِ ﷻ، هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَفِيهِ)(١).

ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنَّه قال عن القرآن: (وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ)(٢).

والله تعالى قد أودع فيه من الأخبار والقصص ما يكون به العِظة والاعتبار، والثبات على الحق، ومعرفة سنن الله تعالى في الكون، وغيرها من الحكم العظيمة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٢٤٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم: (٢٩٠٦)، وقال: (هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث مقال).

بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يوسف:١١١]، وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة هود:١٢٠]، وقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر:٤٣].

فالعلم بما أودع الله تعالى في كتابه من أعظم مقاصد قراءته، فقد كان الصحابة ﷺ يأخذون عشر آياتٍ فما يجاوزوهنَّ حتَّى يتعلَّموا ما فيها من العلم والعمل، قال أبو عبدالرحمن السلمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنَّا أخذنا القرآن عن قومٍ، فأخبرونا أنَّهم كانوا إذا تعلَّموا عشر آيات لم يجاوزوهنَّ إلى العشر الأخر حتى يعملوا ما فيهنَّ من العلم، قال: فتعلَّمنا العلم والعمل جميعًا، وإنَّه سيرث هذا القرآن قوم بعدنا يشربونه كشربهم الماء، لا يجاوز تراقيهم، قال: بل لا يجاوز ههنا، ووضع يده تحت حنكه)(١).

وقد بيَّن الله تعالى أصول بعثة الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة الجمعة:٢]، وفي هذا بيان أن تلاوة القرآن وتعليمه من الأصول الكبرى لبعثته، فالتلازم بين تلاوة القرآن وتعليم ما يتضمنه من الأخبار والأحكام والإيمان أمر راسخ بيِّن.

ورغَّب النبي ﷺ في تعلُّم القرآن في أكثر من حديث؛ فمن ذلك قوله ﷺ: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)(٢).

---

(١) البدع والنهي عنها لابن وضاح (ص١٧٠)، فضائل القرآن للفريابي (ص٢٤١).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٥٠٢٧).

وفي لفظ: (إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)(١).

وقال النبي ﷺ: (أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ)(٢).

وقال ﷺ: (الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ)(٣).

فالقرآن مليءٌ بالعلوم والمعارف، وقد أودع الله فيه ما يحتاجه الإنسان من أمر دينه ودنياه، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف:٥٢].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يقول: على علم منَّا بحق ما فُصِّل فيه من الباطل الذي ميَّز فيه بينه وبين الحق)(٤).

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي: بيَّنا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٥٠٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٨٠٣).

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» برقم: (٢٨٨٥).

(٤) تفسير الطبري (١٠/ ٢٤٠).

لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكمًا غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء)[(١)].

وقد وصف الله تعالى حملة القرآن بأنَّهم أهل علم لمَّا تضمَّنه من العلوم والمعارف النافعة؛ فقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [سورة العنكبوت:٤٩].

وبيَّن الله تعالى أنَّ العلم بالقرآن من أعظم أسباب التأثر به، فقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۞ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [سورة الإسراء:١٠٦-١٠٧].

والعلم الحق يورث حقيقة العبودية؛ فمن تعلم العلم الذي أنزله الله حق تعلمه، وتلقَّاه على الوجه الذي ينبغي؛ وجد أثر ذلك في عبادته وسلوكه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [سورة فاطر:٢٨].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لأنَّ من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته، فخافه ورهبه خشية منه أن يعاقبه)[(٢)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّما يخشاه حقَّ خشيته العلماء العارفون به؛ لأنَّه كلَّما كانت

---

(١) تفسير الكريم الرحمن (ص٢٩١).

(٢) تفسير الطبري (١٩/ ٣٦٤).

المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل؛ كانت الخشية له أعظم وأكثر)[(١)].

والعلم بالقرآن ليس مجرد معارف نظرية يحفظها الإنسان فيصبح عالمًا؛ بل هي حقائق إيمانية يجب التحقُّق بمقتضاها في القول والعمل، بالقلب واللسان والجوارح.

ولبلوغ هذه المنزلة لابُدَّ من تحقُّق شروط معيَّنة؛ وهي المذكورة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [سورة ق:٣٧].

۞ الشرط الأول: أن يكون للإنسان قلب:

والمقصود: أن يكون له قلبٌ صحيحٌ سليم، يستقبل المعاني الموجودة في القرآن.

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والقلب: عبارة عن العقل إذ هو محله، والمعنى: لمن كان له قلب واع ينتفع به، وقال الشبلي معناه: قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين)[(٢)].

ولا ينتفع الإنسان بالقرآن إلا إذا كان المحل -وهو القلب- قابلًا لذلك، ولهذا فإنَّ المعارضين لهدي القرآن لا ينتفعون به مع سماعهم وتلاوتهم له، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٧٩].

۞ الشرط الثاني: أن يُلقي السمع:

والمقصود: أن يستمع إلى القرآن استماع المستفيد المتدبِّر السَّاعي إلى الهداية،

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤٤).

(٢) تفسير ابن عطية (٥/ ١٦٧).

والمعرفة الصحيحة من آياته، قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (معناه: صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة، وأثبته في سماعها، فذلك إلقاء له عليها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي: أثبتها عليك)[١].

الشرط الثالث: أن يكون شهيدًا:

والمقصود: أن يكون حاضر الفكر والنَّفْس عند قراءته للقرآن.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يقول: وهو متفهم لما يخبر به عنهم شاهد له بقلبه، غير غافل عنه ولا ساه)[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة: «استمع كتاب الله، وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه»، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقُّل ما يقال له والنَّظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو: القرآن، والمحل القابل وهو: القلب الحي، ووجد الشرط وهو: الإصغاء، وانتفى المانع وهو: اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر)[٣].

والقرآن الكريم يتضمن في ثناياه أصول العلوم والمعارف الأساسية مما يحتاجه المؤمن في دينه، ففيه أصول الاعتقاد والغيبيات، وعلم الحلال والحرام والشرائع

---

(١) ابن عطية (٥/ ١٦٨).

(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٤٦٣).

(٣) الفوائد لابن القيم (ص٣).

الربانية، وعلم الأخلاق والآداب، وعلم السنن الإلهية، والغاية من خلق الإنسان وأحواله.

كما يعرض القرآن: حقيقة الدنيا، وحقيقة الموت وما يتعلَّق به، والحياة بعده، والبعث بعد الموت، والجنة والنار، وغير ذلك.

وهذه المعارف التي لا يمكن للإنسان أن يتلقاها على وجه اليقين والقبول والتسليم إلا من خلال القرآن الكريم، وبذلك يكون المرجع الأساسي الذي يُزوِّد الإنسان بالعلم الحق الذي لا يضل به ولا يشك فيه.

المقصد الثالث: تحقيق العمل به واتباعه

أنزل الله تعالى القرآن ليكون منهاجًا لحياة المؤمنين، يهتدون به في جميع شؤونهم، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٥٥]، فالغاية من القراءة تحقيق الاتباع والعمل بما أمر الله به والانتهاء عمَّا نهى عنه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: (﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى نبينا محمَّدٍ ﷺ كتابٌ أنزلناه مبارك، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يقول: فاجعلوه إمامًا تتبعونه وتعملون بما فيه أيُّها الناس، ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ يقول: واحذروا الله في أنفسكم أن تضيِّعوا العمل بما فيه، وتتعدَّوا حدوده، وتستحلوا محارمه)[١].

والعمل بالقرآن مسلك مستقر في منهج الصحابة، يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (كان الرجل منَّا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهُنَّ حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)[٢].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٥).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٧٤).

وقد قال النبي ﷺ: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)[١]، قال يحيى بن هبيرة في شرح الحديث: (في هذا الحديث من الفقه: بيان شرف القرآن وفضل تعلُّمه وتعليمه؛ لأنَّ الإنسان ينال بتلقُّنِه درجة المتعلِّمين، وبتلقِينِه درجة العالِمين، إلا أنِّي أرى أنَّ الأولى للفَطِن اليَقِظ أنَّه لو تعلم منه آية واحدة علَّمها في وقته، ولا يصبر حتى إذا تعلَّم القرآن كله علَّم حينئذ، بل ليتلَقَّن ما استطاع حفظه ثم ليُلَقِّنه لغيره إن قدر من يومه، فيكون انتشار ذلك عنه -ما بلغ- نورًا يسعى بين يديه، وليكون إلى أن يختم الكتاب العزيز قد ختم غيره)[٢].

وهو مسلك مشتق من منهاج النبوة؛ فالقرآن هو المنهج الأخلاقي للرسول الكريم، ولما سُئِلت عائشة رضي الله عنها عن خُلق النبي ﷺ قالت: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللهِ عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾)[٣]، وفي بعض الألفاظ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ: يَرْضَى لِرِضَاهُ، وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ)[٤].

قال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: (وكان قول عائشة: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»، أي: اتباع ما يأمره به القرآن، وترك ما ينهاه عنه)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٥٠٢٧).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ٢٣٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم: (٢٥٢٤٠).

(٤) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» برقم: (٤٤٣٤).

(٥) شرح مشكل الآثار (١١/ ٢٦٥).

وهذا يبين أنَّ الغاية الكبرى من قراءة القرآن الكريم هي: العمل بما جاء فيه من أوامر ونواهي.

ولقد ذم الله تعالى اليهود لما آتاهم التوراة فلم يرفعوا بالعمل رأسًا، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الجمعة:٥].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يقول تعالى ذكره: مثل الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى، فحُمِّلوا العمل بها، ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾، يقول: ثم لم يعملوا بما فيها، وكذَّبوا بمحمَّدٍ ﷺ، وقد أُمروا بالإيمان به فيها، واتباعه والتصديق به، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾، يقول: كمثل الحمار يحمل على ظهره كتبًا من كتب العلم لا ينتفع بها ولا يعقل ما فيها، فكذلك الذين أوتوا التوراة التي فيها بيان أمر محمَّدٍ ﷺ مثلهم، إذا لم ينتفعوا بما فيها، كمثل الحمار الذي يحمل أسفارًا فيها علم، فهو لا يعقلها ولا ينتفع بها)[(١)].

وذمَّ النبيُّ ﷺ ما يظهر من حسن قراءة القارئ للقرآن من غير عمل به، فقد أخرج ابن حبان في «صحيحه» عن سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَقْتَرِئُ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ، كِتَابُ اللهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ، اقْرَءُوهُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهُ أَقْوَامٌ يُقَوِّمُونَهُ كَمَا يُقَوَّمُ السَّهْمُ)[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٦٣٣).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» برقم: (٦٧٢٥).

زاد أبو داود في «سننه»: (يَتَعَجَّلُ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُهُ)(١).

بل ورد الوعيد الشديد في ترك العمل به، كما رُوي في حديث سمرة بن جندب ﵁ الطويل في الرؤية التي رآها النبي ﷺ، والذي فيه: (أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ)(٢).

قال ابن بطال: (يعني: يترك حفظ حروفه والعمل بمعانيه، فأمَّا إذا ترك حفظ حروفه وعمل بمعانيه فليس برافض له)(٣).

وقال ابن الجوزي: (وقوله: «يأخذ القرآن فيرفضه» يحتمل وجهين: أحدهما: يرفض تلاوته حتى ينساه، والثاني: يرفض العمل له)(٤).

وقد كان أصحاب النبي ﷺ نموذجًا حيًّا للعمل بالقرآن والوقوف عند حدوده، فلمَّا وقعت حادثة الإفك وخاض فيها من خاض في عرض أم المؤمنين عائشة ﵂، كان ممَّن تكلم في ذلك مِسطح بن أثاثة ﵁، وكان رجلًا فقيرًا ذا رحم لأبي بكر ﵁، وكان أبوبكر ﵁ ينفق عليه من ماله، قالت عائشة ﵂ في سياق ذكرها لقصة الإفك: (فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ الآيات، فلمَّا أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق ﵁ -وكان ينفق على مِسطح بن أثاثة لقرابته منه-: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد ما قال لعائشة فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾،

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» برقم: (٨٣١).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٧٠٤٧).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣/ ١٣٤).

(٤) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/ ٣٨).

إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إنِّي لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مِسطح الذي كان يجري عليه)[١].

وكذلك كان عمر بن الخطاب ﷺ، فقد ذكر ابن عبَّاس ﷺ أنَّ عيينة بن حصن استأذن للدخول على عمر ﷺ ليُكلِّمه، فلمَّا أُذِنَ له قال لعمر: (هِيْ يا ابن الخطَّاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل)، فغضب عمر ﷺ من قوله حتَّى همَّ أن يُوقع به، فلمَّا قرأ عليه الحُرُّ بن قيس ﷺ قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٩٩]، قال: (والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله)[٢].

قال العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله: «ما جاوزها» أي: ما جاوز الآية المذكورة، يعني: لم يتعدَ عن العمل بها.

قوله: «وكان»: أي عمر، «وقَّافًا»: مبالغة في واقف، ومعناه: أنَّه إذا سمع كتاب الله يقف عنده، ولا يتجاوز عن حكمه)[٣].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومعنى «ما جاوزها»: ما عمل بغير ما دلَّت عليه، بل عمل بمقتضاها)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٢٦٦١).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٤٦٤٢).

(٣) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري (١٨/ ٢٤٣).

(٤) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢٥٩).

وقد رُوِيَ عن عمر ﷺ قوله: (لا يغرنَّكم من قرأ القرآن، إنَّما هو كلام يُتكلَّم به، ولكن انظروا من يعمل به)[(١)].

وعن عائشة ﷺ قالت: (يرحم الله نساء المهاجرات الأُوَل، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مُرُوطهنَّ فاختمرن بها)[(٢)].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنَّها صدقة لله، أرجو برَّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه)[(٣)].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: (كنتُ ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي: ألا إنَّ الخمر قد حرمت، قال: فقال لي

---

(١) اقتضاء العلم العمل (ص٧١).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٤٧٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (١٤٦١)، ومسلم في «صحيحه» برقم: (٩٩٨).

أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة، فقال بعض القوم: قد قتل قوم وهي في بطونهم، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ الآية)[١].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّما نزل القرآن ليُعمل به، فاتَّخذ النَّاس قراءَتَه عملًا، قال: قيل كيف العمل به؟ قال: أي ليُحِلُّوا حلاله، ويُحرِّموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه)[٢].

وقد فسَّر جمعٌ من المفسرين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [سورة البقرة:١٢١]، بأنَّ حق التلاوة هو: العمل به واتِّباع ما فيه، نُقل هذا عن مجاهد[٣]، وعطاء[٤]، والحسن[٥]، وقتادة[٦]، وغيرهم.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٢٤٦٤)، ومسلم في «صحيحه» برقم: (١٩٨٠).

(٢) اقتضاء العلم العمل (ص٧٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٩٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٩١).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٩١-٤٩٢).

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٩٢).

المقصد الرابع: الحُكم به والتحاكم إليه

أنزل الله تعالى هذا القرآن ليكون مرجعًا يُستمدُّ منه التشريع والأحكام، وهاديًا يُرشد النَّاس في جميع الأحوال، وحَكَمًا يفصل بينهم عند حدوث الخصومات، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [سورة النساء:١٠٥]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّا أنزلنا إليك يا محمد الكتاب، يعني: القرآن ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ لتقضي بين الناس، فتفصل بينهم، ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ يعني: بما أنزل الله إليك من كتابه)(١).

والحُكم بالقرآن والتحاكم إليه يشمل الاعتماد عليه في بناء الاعتقاد واستمداد الأوامر التعبُّدية والأحكام القضائية، وتنظيم العلاقات بين الأفراد والمجتمعات، والرجوع إليه للفَصْل في المنازعات، فإنَّ الله تعالى جعل الرد إلى القرآن عند الاختلاف من علامة الإيمان، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [سورة النساء:٥٩].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (معنى تنازعتم: اختلفتم وتجادلتم، وقال كل فريق: القولُ قولي،

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٥٧).

واشتقاق المنازعة أنَّ كل واحدٍ منهما ينزع الحجة، وفي هذه الآية أمر مؤكَّدٌ يدُلُّ على أنَّ القصد للاختلاف كفر، وأنَّ الإيمان: اتباع الإجماع والسُّنَّة)[١].

وقال الثعلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ من أمر دينكم، والتنازع: اختلاف الآراء، فيتعاطى كل واحد ما يرى خلاف رأي صاحبه، وأصله من النزع، كأن المتنازعين يتجاذبان ويتمانعان، ومنه قيل للمناولة: منازعة.

قال الأعشى:

نازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئًا وَقَهْوَةً مُزَّةً، رَواوُوقُها خَضِلُ

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يعني: إلى كتاب الله، وإلى الرسول ما دام حيًا، فإذا مات، فإلى سنته، ﴿كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أي: ذلك الرد، ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ جزاءً وعاقبة، والتأويل: ما يؤول إليه الأمر)[٢].

والتنازع يشمل: التنازع في الحقوق، ويكون الفصل فيه إلى القضاء، والتنازع في العقائد، ويكون الفصل فيه إلى العلم والحجة الشرعية، وكلاهما يجب فيه الرد إلى الله والرسول.

ولم يجعل الشرع الرد في الحقوق إلى القانون الوضعي، ولم يجعل الرد في العقائد إلى العقل، وهذا يؤسس لمصدر التلقي، وهو الرجوع إلى الوحي دون سواه.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٦٨).

(٢) تفسير الثعلبي (١٠/ ٤٥٠).

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة المائدة:٤٨]، فهذا أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يحكم بين المحتكمين إليه بالقرآن(١)، وألا يترك ما عنده من الحقِّ، قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا تتبعهم عما عندك من الحق فتتركه وتتبعهم، كما تقول: لا تتبع زيدًا عن رأيك، يعني: لا تترك رأيك وتتبعه)(٢).

وقال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا تعرض عما جاءك وتتبع أهواءهم)(٣).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، أي: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء)(٤).

فجعل الله تعالى الإعراض عن الحكم بالقرآن من مظاهر اتِّباع الأهواء المضلة، كما أنَّه اعتبر من لم يحكم به كافرًا ظالمًا فاسقًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المائدة:٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة المائدة:٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٤٩١).

(٢) التفسير البسيط (٧/ ٤٠٧).

(٣) تفسير السمعاني (٢/ ٤٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٨).

هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [سورة المائدة:٤٧].

المقصد الخامس: التدبُّر والتفكُّر في معانيه وأمثاله

إنَّ المتأمِّل في الآيات القرآنية التي تذكر حكمة إنزال القرآن الكريم ليُدرك بوضوحٍ أنَّ من أعظم مقاصده: تدبُّر آياته، والتفكُّر في معانيه، والتأمُّل في حِكَمِه وأمثاله، ليزداد المؤمن علمًا ويقينًا، ويستقيم على الصراط المستقيم، إذ التدبُّر مفتاح الفهم الصحيح لكلام الله تعالى، وهو سبيل التذكُّر والاعتبار، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة ص:٢٩].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمَّدٍ ﷺ: وهذا القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد، ﴿مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يقول: ليتدبَّروا حجج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به...، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يقول: وليعتبر أولو العقول والحجا ما في هذا الكتاب من الآيات، فيرتدعوا عمَّا هم عليه مقيمين من الضلالة، وينتهوا إلى ما دلَّهم عليه من الرشاد وسبيل الصواب)[(١)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّما يفهم ويعقل ويتدبَّر المعاني على وجهها أولو العقول

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٧٩-٨٠).

السليمة والفهوم المستقيمة)[١].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبَّر النَّاس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأمَّلوا أسرارها وحِكَمها، فإنَّه بالتدبُّر فيه والتأمُّل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرَّة بعد مرَّة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدُلُّ على الحثِّ على تدبر القرآن، وأنَّه من أفضل الأعمال، وأنَّ القراءة المشتملة على التدبُّر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود)[٢].

وقال أيضًا في كلامٍ جامعٍ نفيس: (يأمر تعالى بتدبُّر كتابه، وهو التأمُّل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك، فإنَّ تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنه يعرِّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأمُّلًا فيه ازداد علمًا وعملًا وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنَّه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢).

(٢) تفسير الكريم الرحمن (ص٧١٢).

لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾)[١].

وقد ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ من حِكم إنزاله -كما في خاتمة الآية-: أن يكون ذكرى لأولي الألباب، وقد ذُكرت هذه الحكمة مع حِكَمًا أخرى في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة إبراهيم:٥٢]، قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقد بيَّن في هذه الآية الكريمة أنَّ تذكُّر أولي الألباب من حكم إنزاله، مبينًا منها حكمتين أخريين من حِكَم إنزاله، وهما: إنذار النَّاس به، وتحقيق معنى لا إله إلا الله)[٢].

والفرق بين التدبُّر والتفكُّر، أنَّ التدبُّر هو: (تصرُّف القلب بالنَّظر في عواقب الأمور، والتفكُّر: تصرُّف القلب بالنَّظر في الدلائل)[٣].

وقال السمعاني: (التدبر: النَّظَر في الأمر إلى آخره، وهو من دبر الشيء: آخره، وفي الخبر من أشراط الساعة: «ولا يأتون الصلاة إلا دبرًا» أي: آخرًا)[٤]، وقال: (التدبير: هو التفكُّر والنَّظَر فيما يؤول إليه عاقبة الأمر)[٥].

---

(١) تفسير الكريم الرحمن (ص١٨٩).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٣٣).

(٣) معجم الفروق اللغوية (ص١٢١).

(٤) تفسير السمعاني (١/ ٤٥٢).

(٥) تفسير السمعاني (٥/ ١٨١).

وقال في معنى التفكُّر: (تصرُّف القلب في طلب معاني الأشياء)[١].

وقد رجَّح جمعٌ من أهل العلم القراءة القليلة التي تكون بتدبُّر على التلاوة السريعة الكثيرة بلا تدبُّر وتفكُّر؛ لأنَّ الغاية من قراءة القرآن هو تحريك القلب به، وفهم معانيه والتأثُّر بمواعظه، وهذا ما لا يتحقَّق بالقراءة السريعة، ولذلك حين أتى نَهيك بن سنان السُّلمي إلى عبدالله بن مسعود ﷺ وقال له: «إنِّي لأقرأ المفصَّل في ركعة»، قال له ابن مسعود ﷺ: (هذًّا كهذِّ الشعر! إنَّ قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن القرآن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع)[٢].

وقال أيضًا ﷺ: (لا تهذُّوا القرآن كهَذِّ الشعر، ولا تنثُرُوه نثر الدَّقَل، وقِفُوا عند عجائبه وحرِّكُوا به القلوب)[٣].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقًا على قول ابن مسعود ﷺ: (وفي هذا الحديث من الفوائد كراهة الإفراط في سرعة التلاوة؛ لأنَّه ينافي المطلوب من التدبُّر والتفكُّر في معاني القرآن، ولا خلاف في جواز السَّرد بدون تدبر، لكن القراءة بالتدبُّر أعظم أجرًا)[٤].

وقال محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لأنَّ أقرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، ليلةً أردِّدهما، وأتفكَّر فيهما أحبُّ إليَّ من أن أبيت أهُذُّ القرآن)[٥].

---

(١) تفسير السمعاني (٣/ ٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٨٢٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم: (٨٨٢٥).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٢٦٠).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم: (٨٨٢٤).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّ هذا القرآن قد قرأه عبيدٌ وصبيانٌ لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر من قِبَل أوَّله، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وما تدبُّر آياته إلَّا اتباعه بعلمه، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: لقد قرأتُ القرآن كله، وما أُسقِطُ منه حرفًا واحدًا، وقد والله أسقطَه كله، ما ترى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إنَّ أحدهم ليقول: والله إنِّي لأقرأ السورة في نفس واحدٍ، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعة، ومتى كان القُرَّاء يقولون مثل هذا؟ لا كثَّر الله في المسلمين من هؤلاء)[(١)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والقراءة القليلة بتفكُّر أفضل من الكثيرة بلا تفكُّر، وهو المنصوص عن الصحابة صريحًا)[(٢)].

وقد أمر الله تعالى بالتدبُّر وحثَّ عليه في مواضع عديدة من القرآن؛ لأنَّ حصول النَّفع بالقرآن إنَّما يكون إذا تدبَّره القارئ وتفكَّر في معانيه، فبالتدبُّر يستنبط القارئ مقاصد القرآن، ويربطها بواقعه، كما أنَّه يقف بذلك على أحكامه ومواعظه ودلائل إعجازه، ويتعرَّف على سنن الله الكونية والشرعية، فيزداد يقينه بأنَّ هذا الكتاب وحي من الله تعالى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [سورة النساء:٨٢].

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» برقم: (٥٩٨٤)، والآجري في «أخلاق أهل القرآن» برقم: (٣٤).

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٣٣٤).

قال ابن أبي زمنين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يقول: لو تدبَّروه لم ينافقوا ولآمنوا، ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ هذا القرآن، ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ تفسير قتادة: قول الله لا يختلف، هو حق ليس فيه باطل، وإنَّ قول الناس يختلف)[(١)].

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المعنى: هؤلاء المنافقون الطاعنون عليك الرافعون بغير برهان في صدر نبوتك، ألا يرجعون إلى النصفة، وينظرون موضع الحجة ويتدبَّرون كلام الله تعالى؟ فتظهر لهم براهينه، وتلوح أدلته، و«التدبُّر»: النَّظَر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء، هذا كله يقتضيه قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وهذا أمر بالنَّظَر والاستدلال.

ثم عرَّف تعالى بمواقع الحجة، أي: لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من القصور، وظهر فيه التناقض والتنافي الذي لا يمكن جمعه، إذ ذلك موجود في كلام البشر، والقرآن منزه عنه، إذ هو كلام المحيط بكل شيء علمًا)[(٢)].

وقال تعالى أيضًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [سورة محمد:٢٤].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أفلا يتدبَّر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكَّرون في حججه التي بيَّنها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ يقول: أم أقفل

---

(١) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١/ ٣٩٠).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٨٣).

الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر)[١].

وقال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الحشر:٢١].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حثَّ على تأمُّل مواعظ القرآن، وبيَّن أنَّه لا عُذر في ترك التدبُّر، فإنَّه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي: متشقِّقة من خشية الله)[٢].

ومن تأمَّل القرآن وجد فيه أنَّ من أسباب هلاك الأمم: ترك الاعتبار والاتعاظ، وهما ينتجان عن التعقُّل والتدبر لآيات الله؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ۞ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ۞ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ۞ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ۞ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾ [سورة الفرقان:٣٥-٣٩].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يقول تعالى ذكره: وكل هذه الأمم التي أهلكناها التي سمَّيناها لكم أو لم نسمها: ضربنا لها الأمثال، يقول: مثَّلنا لها الأمثال ونبَّهناها على حُججنا عليها، وأعذرنا إليها بالعِبر والمواعظ، فلم نُهلك أمةً إلا بعد الإبلاغ إليهم في المعذرة)[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٢١٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٤٤).

(٣) تفسير الطبري (١٧/ ٤٥٥).

ومن أعظم العقوبات التي يعاقب الله تعالى بها من أعرض من عباده واستكبر: صرفه عن تدبُّر القرآن والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٤٦].

وقد فسَّر جمعٌ من المفسرين قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ بأنَّ المقصود به: صرف القلوب عن التفكير في آيات الله تعالى وفهم معاني القرآن، وحجبها عن إدراك الحقِّ والتأمُّل في أمر الله ﷻ(١).

وتدبُّر القرآن لا يستقيم ويثمر إلا بتحقق شروطه؛ وأهم هذه الشروط:

۞ الأول: حضور القلب وصلاحه ليكون محلًّا للتدبر:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [سورة محمد:٢٤]، فدَّلت الآية أن إقبال القلب وانشراحه وخلوه من المعوقات -التي هي كالأقفال للقلب- سبب في حصول التدبر.

قال أبو السعود العمادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ فلا يكاد يصل إليها ذكرٌ أصلًا، و﴿ أَمْ ﴾ منقطعة، وما فيها من معنى: «بل»، للانتقال من التوبيخ بعدم التدبُّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبُّر والتفكُّر)(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٧).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧/ ٥٩٦-٥٩٧).

۞ الثاني: العلم الذي يؤدي إلى فهم مراد الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٤٣].

قال مقاتل: (وما يعقل الأمثال إلا العلماء الذين يعقلون عن الله الأمثال)[(١)].

وقال الكلبي: (إلا عالم أراد الله له ذلك، فيعلم ما ضرب له المثل في القرآن)[(٢)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه)[(٣)].

فالقارئ لا يمكنه أن يتدبَّر القرآن تدبُّرًا سليمًا دون العلم بمعانيه الصحيحة، إذ الجهل بها يحجه عن مواطن التأمُّل والتفكُّر في الآيات، ممَّا يمنعه من تحقيق الغاية المرجوة من تدبُّره والاستفادة من هداياته.

(١) التفسير البسيط (١٧/ ٥٢٩).

(٢) التفسير البسيط (١٧/ ٥٣٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٩).

المقصد السادس: حفظه واجتناب هجره ونسيانه

إنَّ من المقاصد العظيمة لقراءة القرآن الكريم: حفظه في الصدور، ومعاهدة قراءته، واجتناب هجره ونسيانه، إذ أنزله الله ليكون نورًا يُستضاء به، وهدًى يُقتدى به، وهذا لا يتحقَّق إلا بالعناية الدائمة به قراءةً وحفظًا ومدارسةً وتدبُّرًا، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [سورة العنكبوت:٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر:١٧]، قال الواحدي: (سهَّلناه للحفظ، فليس يُحفظ كتابٌ من كتب الله ظاهرًا إلا القرآن)[(١)].

قال أبو القاسم الكرماني: (هوَّنَّاه وسهَّلنا قراءته وتلاوته، ولولا ذلك ما أطاق العباد أن يتكلموا بكلام الله تعالى.

وقيل: يسَّرناه للحفظ حتى يحفظه الصبي والكبير، والعربي والعجمي، والأمي والبليغ، وسائر كتب الله تعالى يقرؤونها نظرًا ولا يحفظها عن آخرها أحد حفظًا.

وقيل: يسَّرنا استنباط معانيه، وسهَّلنا علم ما فيه)[(٢)].

---

(١) الوجيز للواحدي (ص١٠٤٧)، ورُوِيَ قريبًا منقول الواحدي عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلعلَّ الواحدي أخذ معنى الآية منه، انظر: تفسير الثعلبي (٩/ ١٦٥).

(٢) لباب التفاسير للكرماني (ص٣٠٩٦).

وقد نص جماعة من أهل العلم أنَّ تيسير حفظ القرآن الكريم من صور إعجازه؛ قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والوجه السادس عشر من إعجازه: تيسيره على جميع الألسنة حتى حفظه الأعجمي الأبكم، ودار به لسان القبطي الألكن، ولا يُحفظ غيره من الكتب كحفظه، ولا تجري به ألسنة البكم كجريها به، وما ذاك إلا بخصائص إلهية فضَّله بها على سائر كتبه)[(١)].

ومما جاء عن النبي ﷺ في الحث على حفظ القرآن قوله ﷺ: (يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا)[(٢)].

وقد سُئِل ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الفضل الوارد في هذا الحديث، هل هو لمن حفظه في الدُّنيا عن ظهر قلب؟ أم يستوي فيه من حفظه ومن يقرؤه من المصحف؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (الخبر المذكور خاص بمن يحفظه عن ظهر قلب، لا بمن يقرأ في المصحف؛ لأنَّ مجرد القراءة في الخط لا يختلف النَّاس فيها، ولا يتفاوتون قلة وكثرة، وإنَّما الذي يتفاوتون فيه كذلك هو الحفظ عن ظهر قلب، فلهذا تفاوتت منازلهم في الجنة بحسب تفاوت حفظهم، ومما يؤيِّد ذلك أيضًا، أنَّ حفظ القرآن عن ظهر قلب فرض كفاية على الأمة، ومجرد القراءة في المصحف من غير حفظ لا يسقط بها الطلب، فليس لها كبير فضل كفضل الحفظ، فتعيَّن أنَّه أعنى الحفظ عن ظهر قلب هو المراد في الخبر،

---

(١) أعلام النبوة للماوردي (ص٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» برقم: (١٤٦٤)، والترمذي في «جامعه» برقم: (٢٩١٤) وقال: «حديث حسن صحيح».

وهذا ظاهر من لفظ الخبر بأدنى تأمل، وقول الملائكة له: «اقرأ وارق»، صريح في حفظه عن ظهر قلب كما لا يخفى)[١].

وقال النبي ﷺ: (تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا)[٢].

وقال ﷺ: (بِئْسَ مَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ نُسِّيَ، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ)[٣].

قال شهاب الدين التُّوربشتي رَحِمَهُ اللَّهُ: (التعهُّد والتعاهد هو: التحفظ بالشيء وتجديد العهد به، ومعناه هاهنا: التوصية بتجديد العمل بقراءته؛ لئلا يذهب عنه.

وفي معناه: «استذكروا القرآن»: أي تفقَّدوا القرآن بالذكر، وهو عبارة عن استحضاره في القلب وحفظه عن النسيان بالتلاوة، وهو في رواية ابن مسعود وفيه: «لهو أشد تفصِّيًا من الإبل في عقلها»، والتفصي من الشيء: التخلص منه...، والمعنى: أنَّ صاحب القرآن إذا لم يتعاهده بتلاوته والتحفظ والتذكُّر حالًا فحالًا إلا كان أشد ذهابًا من الإبل إذا تخلَّصت من العقال، فإنَّها تنفلت حتى لا تكاد تُلحق)[٤].

وقال البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: (تعاهد الشيء وتعهده: محافظته وتجديد العهد به، والمراد

---

(١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي (ص١١٣).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٥٠٣٣)، ومسلم في «صحيحه» برقم: (٧٩١).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٥٠٣٢)، ومسلم في «صحيحه» برقم: (٧٩٠).

(٤) الميسر في شرح مصابيح السنة للتوربشتي (٢/ ٥٠٧).

منه: الأمر بالمواظبة على التلاوة، والمداومة على تكراره ودرسه، كيلا ينسى)[١].

(١) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (١/ ٥٣٨).

المقصد السابع: تحصيل الأجر بتلاوته

وهذا المقصد يُعدُّ من أظهر مقاصد قراءة القرآن وتلاوته، فإنَّ تلاوته عبادة جليلة يتقرَّب بها العبد إلى ربِّه، وقد جاءت النُّصوص الشرعية تبيِّن أنَّ قراءة القرآن من أعظم أسباب مضاعفة الحسنات، ورفع الدرجات، ونيل رضوان الله تعالى.

وقد جاء الأمر بتلاوة القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ [سورة الكهف:٢٧].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: (واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا، ولا تتركن تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه، والعمل بحلاله وحرامه، فتكون من الهالكين، وذلك أن مصير من خالفه، وترك اتباعه يوم القيامة إلى جهنم)[(١)].

وذكر ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولان في المراد بالتلاوة في هذه الآية[(٢)]:

الأول: أنَّها بمعنى القراءة، فيكون المعنى: «اقرأ القرآن».

والآخر: أنَّها بمعنى الاتباع، فيكون المعنى: «اتَّبعه واعمل به».

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٢٣٤).

(٢) زاد الميسر في علم التفسير (٣/ ٧٩).

والآية شاملة للمعنيين على السواء.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٤٥].

قال أبو السعود العمادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (تقرُّبا إلى الله تعالى بقراءته، وتذكُّرًا لما في تضاعيفه من المعاني، وتذكيرًا للنَّاس وحملًا لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق)[(١)].

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: القرآن، وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن، والمحافظة على قراءته مع التدبُّر لآياته، والتفكُّر في معانيه)[(٢)].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته: اتباعه بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبُّر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أنَّ إقامة الدين كله، داخلة في تلاوة الكتاب)[(٣)].

وجاء بيان مقام التالين للقرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/ ٥٦٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ٢٣٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٥).

ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۞ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [سورة فاطر:٢٩-٣٠].

فجعل الله تعالى لمن يتلو كتابه جزيل الأجر وعظيم الفضل، حيث رتَّب على قراءته مغفرة الذنوب، وجعلها تجارة رابحة لا تبور، يُضاعف الله بها الحسنات، ويثيب القارئ عليها يوم القيامة أعظم الجزاء.

وقد جاء فضل تلاوة القرآن عظيمًا في حالات مختلفة، ومن ذلك تلاوة القرآن في الصلاة، فقد قال النبي ﷺ في بيان الأجر العظيم لقارئ القرآن في الصلاة: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: فَثَلَاثُ آيَاتٍ **يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ** خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ)(١).

ومنه تلاوة القرآن في المسجد؛ لأنه محل مخصص للعبادة، ففي حديث عقبة بن عامر ﵁ قال: (خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: **أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ** ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ)(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٨٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٨٠٣).

وفي فضل الانشغال بتلاوة القرآن؛ ما أخرج الترمذي في «جامعه» عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ)(١).

ويظهر كثرة الحسنات المكتسبة من تلاوة القرآن، ومضاعفتها، في قول النبي ﷺ: (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ «الم» حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ)(٢).

وإذا كان قارئ القرآن ماهر به، أو يجد في تلاوته مشقة فهو مأجور في كلا الحالتين، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ: (مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ، فَلَهُ أَجْرَانِ)(٣).

والنُّصوص في فضل قراءة القرآن والثواب على ذلك كثيرة، كلها تدُلُّ على أنَّ نيل الأجر والثواب من أعظم المقاصد التي شُرعت لأجلها تلاوة القرآن، فهو باب واسع من أبواب الفضل الإلهي، ووسيلة يتقرَّب بها العبد إلى ربه، كما قال خباب بن الأرت ﵁ لفروة بن نوفل الأشجعي: (يا هناه تقرب إلى الله ﷻ ما استطعتَ، فإنَّك لن تتقرَّب إليه

---

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم: (٢٩٢٦)، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم: (٣١٧١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٤٩٣٧)، ومسلم في «صحيحه» برقم: (٧٩٨).

بشيءٍ أحب إليه من كلامه، يعني: القرآن)[(١)].

لذلك يتعيَّن على المسلم أن يجعل من تلاوة كتاب الله ﷻ وردًا يوميًا ثابتًا لا ينقطع، ليحصل بذلك على الأجر العظيم الذي أعدَّه الله ﷻ لأهل القرآن، فيفوز القارئ بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة، ويحظى برضا ربه تعالى ورضوانه.

(١) السنة لعبدالله بن أحمد (١/ ١٤١)، الإبانة الكبرى لابن بطة (٥/ ٢٤٦).

المقصد الثامن: التخلُّق بأخلاقه والتأدُّب بآدابه

ومن المقاصد العظمى لقراءة القرآن الكريم: أن يتخلَّق القارئ بأخلاقه، ويتأدَّب بآدابه، فيجعل من آياته منهجًا لحياته، ومُربيًا له في سلوكه وتصرُّفاته.

وقد حثَّ القرآن الكريم في مواضع متعدِّدة منه على التحلِّي بالأخلاق الفاضلة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [سورة البقرة:٨٣]، وقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [سورة فصلت:٣٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [سورة النساء:٥٨]، وقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ [سورة النحل:٩١]، والآيات في هذا كثيرة.

وحين سُئِلت عائشة ﵂ عن خُلق النبي ﷺ قالت: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾)[١]، وفي بعض الألفاظ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ: يَرْضَى لِرِضَاهُ، وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ)[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم: (٢٥٢٤٠).

(٢) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» برقم: (٤٤٣٤).

وحين سُئِلت عائشة ﵂ عن معنى الخلق العظيم الوارد في الآية؛ قالت: (خلقه القرآن والعمل بما فيه)[١].

وقال الحسن ﵀: (كان خلقه آداب القرآن)[٢].

وقال الطبري ﵀ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم:٤]: (يقول تعالى ذكر لنبيه محمَّدٍ ﷺ: وإنَّك يا محمد لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدَّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه)[٣].

وقال السمعاني ﵀: (وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: على الخلق الذي أدَّبك الله به مما نزل به القرآن من الإحسان إلى النَّاس والعفو والتجاوز، وصلة الأرحام، وإعطاء النصفة، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وما أشبه ذلك)[٤].

وقال ابن الجوزي ﵀ في الخُلُق العظيم: (فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: دين الإسلام، قاله ابن عباس.

والثاني: أدب القرآن، قاله الحسن.

والثالث: الطبع الكريم.

وحقيقة «الخُلُق»: ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب، فسمي خُلُقًا؛ لأنَّه يصير

---

(١) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ١٥٦).

(٢) تفسير الثعلبي (٢٧/ ١٥١).

(٣) تفسر الطبري (٢٣/ ٥٢٨).

(٤) تفسير السمعاني (٦/ ١٨).

كالخِلْقة في صاحبه، فأمَّا ما طُبع عليه فيُسمى: «الخِيم» فيكون الخِيم: الطبع الغريزي، والخُلُق: الطبع المُتكلَّف)[١].

إنَّ التحلِّي بأخلاق القرآن والتأدُّب بآدابه يُعدَّ من أسمى مقاصد قراءته؛ لأنَّه يعكس في القارئ أثر قراءته، فيكون أهلًا ليكون من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصَّته.

وهذا يدل على أنَّ القرآن يتضمن نظامًا أخلاقيًّا شاملًا، وأنَّ النبي ﷺ كان متمثِّلًا لهذه القيم الأخلاقية القرآنية، وسيرته النبوية هي الترجمة العملية للقيم الأخلاقية في القرآن.

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣١٩).

المقصد التاسع: الإنذار به

يُعدُّ هذا المقصد من المقاصد الجليَّة في القرآن، فإنَّ الله تعالى قد أمر نبيَّه محمَّدًا ﷺ بإبلاغ رسالته للنَّاس، وتحذيرهم من عاقبة التكذيب والمخالفة، وتذكيرهم بمصير الأمم المكذِّبة؛ فقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [سورة الأنعام:١٩].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمَّدٍ ﷺ: قل لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك: ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ عقابه، وأنذر به من بلغه من سائر النَّاس غيركم، إن لم ينتهِ إلى العمل بما فيه، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والإيمان بجميعه: نزول نقمة الله به)[١].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: وأوحى الله إليَّ هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم لأنذركم به من العقاب الأليم، والنذارة إنَّما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب والترهيب، وببيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة التي مَن قام بها فقد قَبِل النذارة، فهذا القرآن فيه النذارة لكم أيُّها المخاطبون، وكل من بلغه القرآن

(١) تفسير الطبري (٩/ ١٨١).

إلى يوم القيامة، فإنَّ فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية)[١].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٤٥].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمَّدٍ ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء القائلين: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾: إنَّما أنذركم أيُّها القوم بتنزيل الله الذي يوحيه إلى من عنده، وأخوفكم به بأسه)[٢].

وقال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: أخوِّفكم بالقرآن، والمعنى: إنَّما أنذركم بالوحي الذي يوحيه الله إليَّ، لا من قِبَل نفسي، وذلك أنَّ الله أمره بإنذارهم؛ كقوله: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾)[٣].

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [سورة ق:٤٥].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الآية: (فعِظْ بالقرآن من يخاف وعيد ما وعدت من عصاني من العذاب)[٤].

ففي هذه الآيات وغيرها دلالة واضحة أنَّ من مقاصد قراءة القرآن الكريم أن يكون وسيلة للإنذار والدعوة إلى دين الله تعالى، وتحذير النَّاس من عاقبة الإعراض عن الحقِّ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٥٢).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٢).

(٣) التفسير البسيط (٣/ ٢٣٩).

(٤) التفسير البسيط (٢٠/ ٤٢٢).

والرسول ﷺ كما جاء نذيرًا فقد جاء بالبشرى، وذلك بالتبشير بما أعدَّه الله تعالى للمؤمنين من النعيم المقيم، فالقرآن فيه البشارة والنِّذارة، وهما أصل دعوة الرسل كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة النساء:١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأنعام:٤٨]، فيُنذرون الأمم عقاب الله تعالى على مخالفة أمره، والإعراض عن اتِّباع شرعه، ويُبشِّرون من أطاع واتَّبع شرعه ووحيه بالأمن والاهتداء، وبالنعيم المقيم الذي أعدَّه الله تعالى لعباده المؤمنين.

وقال تعالى حكاية عن نبيه محمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [سورة النمل:٩٢].

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يعني: تلاوة الدعوة إلى الإيمان، قال ابن عباس: «يريد قراءته عليهم»، وقال مقاتل: وأمرت ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ عليكم يا أهل مكة، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ له ثواب اهتدائه، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الإيمان بالقرآن، وأخطأ طريق الهدى، ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: من المخوِّفين بالقرآن، فليس عليَّ إلا البلاغ)[(١)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: على النَّاس أبلغهم إيَّاه)[(٢)].

---

(١) التفسير البسيط (١٧/ ٣٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٢١٨).

وهذا ما كان يفعله النبي ﷺ في دعوته للمشركين، فإنَّه كان يتلوا عليهم آيات القرآن، كما سبق أن ذكرنا في قصة الطفيل بن عمرو رضي الله عنه، وكما فعل ﷺ مع عتبة ربيعة، فإنَّه حين أتى النبي ﷺ وكلَّمه فيما كلَّمه به ورغَّبه في المال والشَّرف، قال له النبي ﷺ: (أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاستمع مني، قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾، فمضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه، فلمَّا سمعها عتبة أنصت له، وألقى بيده خلف ظهره معتمدًا عليها يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك)[(١)].

فلم يزد النبي ﷺ على أن قرأ عليه القرآن، فكان قراءته ردًّا كافيًا، وهذا الموقف يدُلُّ على أنَّ الإنذار بالقرآن والدعوة به من مقاصد قراءته العظيمة، بل نجد الله تعالى قد أمر نبيَّه ﷺ بإعطاء الأمان للمشركين الذي يُريدون سماع القرآن، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [سورة التوبة:٦].

قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك يا محمد من المشركين الذين أمرتُكَ بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم أحدٌ ليسمع كلام الله منك، وهو القرآن الذي أنزله الله عليه، ﴿فَأَجِرۡهُ﴾ يقول: فأمِّنه، ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وتتلوه

(١) سيرة ابن إسحاق (ص٢٠٧)، وانظر: دلائل النبوة للأصبهاني (ص٢٣٣).

عليه، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ يقول: ثم رده بعد سماعه كلام الله -إن هو أبى أن يُسلم ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن- إلى مأمنه، يقول: إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك حتى يلحق بداره وقومه من المشركين)[(١)].

(١) تفسير الطبري (١١/ ٣٤٦).

المقصد العاشر: التحصُّن والاستشفاء به

التحصُّن بالقرآن معناه: التجاء المسلم إليه بقراءته لتحصل له الوقاية من الشرور، كما ورد عن النبي ﷺ أنَّه قال: (مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ)[(١)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قوله: «كَفَتَاهُ»: (وقيل معناه: كفتاه كل سوء، وقيل: كفتاه شر الشيطان، وقيل: دفعتا عنه شر الإنس والجن)[(٢)].

وقال النبي ﷺ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ)[(٣)].

وقال ﷺ: (اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ -قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة-)[(٤)].

وكذلك ما ورد في قصة أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع الشيطان حين قال له: (إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، وقال لي:

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٥٠٠٩)، ومسلم في «صحيحه» برقم: (٨٠٨).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٩/ ٥٦).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٧٨٠).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٨٠٤).

لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح)، فقال له النبي ﷺ: (أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ)(١).

فقراءة القرآن الكريم تعدُّ وسيلة عظيمة للتحصين والوقاية من الأذى البدني والنَّفسي قبل وقوعه، فهي بمثابة حصنٍ حصينٍ يلتجأ إليه الإنسان ليقيه من الشرور والآفات، كما أنَّ في قراءة القرآن بركة عظيمة تعود على القارئ بالنَّفع والخير.

كما أنَّ في قراءة القرآن حصول الشِّفاء لأمراض القلوب والنُّفوس، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة يونس:٥٧]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة الإسراء:٨٢].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير آية سورة يونس: (جعله الله للمؤمنين شفاء يستشفون بمواعظه من الأدواء العارضة لصدورهم، من وساوس الشيطان وخطراته، فيكفيهم ويغنيهم عن كل ما عداه من المواعظ ببيان آياته)(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه= لم يقاومه الداء أبدًا.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٢٣١١).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٦٢).

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها؟ فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه، وسببه، والحمية منه، لمن رزقه الله فهما في كتابه.

وقد تقدم في أول الكلام على الطب بيان إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التي هي: حفظ الصحة، والحمية، واستفراغ المؤذي، والاستدلال بذلك على سائر أفراد هذه الأنواع.

وأما الأدوية القلبية، فإنَّه يذكرها مفصلة، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله)[(١)].

وكان النبي ﷺ يقرأ سورة الإخلاص والمعوِّذتين كل ليلة إذا أوى إلى فراشه، فعن عائشة رضي الله عنها: (أنَّ النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[(٢)].

وممَّا يدُلُّ على أنَّ قراءة القرآن شفاء للأدواء ما أخرجه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حيٍّ من أحياء العرب،

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٥٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٥٠١٧).

فلم يقروهم، فبينما هم كذلك إذ لُدِغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق، فقالوا: إنكم لم تقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعلًا، فجعلوا لهم قطيعًا من الشاء، فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ، فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ، فسألوه فضحك، وقال: وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ)[(١)].

فأثبت النبي ﷺ أنَّ سورة الفاتحة رقية، وصوَّب فعل الراقي بها بقوله كما في الرواية الأخرى: (قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا)[(٢)]، وفي الحديث دليل على أنَّ القرآن شفاء للأبدان كما هو شفاء للأرواح؛ فقد منع الله به سم العقرب من التأثير على بدن الملدوغ.

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ» يدُلُّ أنَّ في القرآن ما يخص الرقى وأنَّ فيه ما لا يخصها، وإن كان القرآن كله مرجو البركة من أجل أنَّه كلام الله، لكن إذا كان في الآية تعوُّذ بالله أو دعاء كان أخص بالرقية ما ليس فيه ذلك)[(٣)].

فالتحصُّن والاستشفاء بالقرآن مقصدٌ عظيم من مقاصد قراءته، فهو الحصن المنيع من الشرور والأدواء، وهذا المقصد يجعل المسلم دائم الصلة بقراءة القرآن الكريم، وذلك أنَّ من أنواع هجر القرآن: (هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها)[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٥٧٣٦)، ومسلم في «صحيحه» برقم: (٢٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم: (٢٢٧٦).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٤٠٧).

(٤) الفوائد لابن القيم (ص١١٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شفاء القرآن للقلوب من أدرانها من الشهوات والشبهات والنفاق: (فلو عَلِمَ النَّاسُ ما في قراءة القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مئة مرَّة، ولو ليلة؛ فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذَوْقِ حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السَّلف، يردِّدُ أحدُهم الآيةَ إلى الصباح وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه قام بآيةٍ يردِّدُها حتى الصباح؛ وهي قولُه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فقراءةُ القرآن بالتفكُّر هي أصلُ صلاح القلب)[1].

فعلى المسلم أن يكون موصولًا بكتاب الله، متحصنًا به، مستشفيًا بآياته، متيقنًا أنَّه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنَّه الرحمة الكبرى والهداية العظمى لكل من تمسَّك به وعمل بمقتضاه.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٣٥-٥٣٦).

المقصد الحادي عشر: الفوز بشفاعته

وشفاعة القرآن تعني: أن يشهد لمن كان من أهل تلاوته والعمل به فيكون سببًا من أسباب الرحمة وغفران الذنوب، وسببًا في رفع الدرجات في الجنَّة.

وقد دلَّت النُّصوص الشرعية الصحيحة على أنَّ مِن مقاصد قراءة القرآن: الفوز بشفاعته، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: (اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا)[(١)].

وقال النبي ﷺ: (يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا)[(٢)].

ففي هذا الحديث الحثُّ على قراءة القرآن والإكثار منه والمواظبة عليه، مع القيام

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٨٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٨٠٥).

بحقِّه من العمل بما فيه من أمر ونهي، وقد خصَّ النبي ﷺ سورتي البقرة وآل عمران بالذِّكر لاختصاصهما بالفضل وعظيم الأجر يوم القيامة، فقد ضرب لهما النبي ﷺ ثلاثة أمثال تدُلُّ على تظليل قارئهما يوم القيامة، كما أنَّهما تُحاجَّان عنه.

قال التوربشتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأريد ها هنا: مدافعة السورتين عن صاحبهما والذَّبِّ عنه، وذلك داخل في المعنى المراد من المثل المضروب؛ لأنَّه إنَّما ضرب مثل السورتين مرَّة بغمامتين، ومرَّة بغيايتين، وتارة بفرقين من طير؛ ليُنبِّه على أنَّهما يُظلَّان صاحبهما عن حرِّ الموقف وكرب يوم القيامة)[١].

وقال النبي ﷺ: (الْقُرْآنُ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ)[٢]، وقال: (وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)[٣].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قوله ﷺ: «وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ»: (أي: ساع، وقيل: خصم مجادل)[٤]، وهذا المعنى موافق لما ورد في مجادلة ومخاصمة سورة البقرة وآل عمران عن صاحبهما، وهو الآخذ بهما حفظًا وتدبُّرًا.

وقال أبو السعادات ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقيل: ساع مصدق، من قولهم: «محل بفلان»، إذا سعى به إلى السلطان، يعني: أنَّ من اتَّبعه وعمل بما فيه فإنَّه شافع له مقبول الشفاعة،

---

(١) الميسر في شرح مصابيح السنة للتوربتشي (٢/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» برقم: (١٢٤).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم: (٢٢٣).

(٤) غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٣٤٥).

ومصدق عليه فيما يرفع من مساويه إذا ترك العمل به)[١].

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» يعني: أنَّك إذا امتثلت أوامره واجتنبت نواهيه كان حجَّة لك في المواقف التي تسأل فيها عنه، كمسألة الملكين في القبر، والمسألة عند الميزان، وفي عقبات الصراط، وإن لم تمتثل ذلك احتجَّ به عليك، ويحتمل أن يراد به: أن القرآن هو الذي يُنتهى إليه عند التنازع في المباحث الشرعيَّة والوقائع الحكمية، فبه تستدلُّ على صحة دعواك، وبه يستدل عليك خصمك)[٢].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما قوله ﷺ: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» فمعناه ظاهر، أي: تنتفع به إن تلوته وعملت به، وإلا فهو حجة عليك)[٣].

وقال الطوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنَّما تقوم الحجة بالقرآن لمن اتبعه عملًا، وإن حفظه وتذكره وتعاهده تلاوة)[٤].

وقال النبي ﷺ: (سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾)[٥].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٠٣).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٤٧٧).

(٣) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠٠).

(٤) التعيين في شرح الأربعين (١/ ١٨٠).

(٥) أخرجه أبو داود في «سننه» برقم: (١٣٩٨)، والترمذي في «جامعه» برقم: (٢٨٩١) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه في «سننه» برقم: (٣٧٨٦).

فهذه الأحاديث تبيِّن عظيم أجر قراءة القرآن، فإنَّ العبد يوم القيامة وفي حياته البرزخية أحوج ما يحتاج إليه عملٌ صالحٌ يكشف الله به عنه الأهوال والكروب، وقد جعل الله تعالى لقراءة القرآن فضلًا عن سائر الأعمال، فإنَّه يأتي يوم القيامة يُدافع عن صاحبه ويُخاصم عنه، فيدفعُ الله تعالى بذلك عن القارئ لكتابه العامل به ما يخشاه، فيأمن من عذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة، فتكون قراءة القرآن سببًا في نجاته من المهالك.

الخاتمة

إن تحقيق مقاصد قراءة القرآن الكريم يتجلَّى في القراءة النافعة التي تؤتي ثمارها، وهي القراءة التي تستفيد من الوحي الرباني، وتتفاعل معه بقلب حي وتنتفع به، فتجمع بين العلم والعمل، وتستحق أن تكون هذه القراءة مشروعًا يُربِّي الإنسان نفسه على الالتزام به؛ ليبلغ الكمال الإيماني بكل أبعاده ومقتضياته.

نسأل الله تعالى أن يعيننا على الانتفاع بكتابه العظيم، وأن يجعله ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وهاديًا لنا إلى الجنان العالية برحمته وإحسانه، وجوده وعطائه، إنَّه سبحانه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

الفهرس

المقدمة	٥
المقصد الأول: تحقيق الإيمان به	٨
المقصد الثاني: العلم بمعانيه	١٦
المقصد الثالث: تحقيق العمل به واتباعه	٢٣
المقصد الرابع: الحُكم به والتحاكم إليه	٣٠
المقصد الخامس: التدبُّر والتفكُّر في معانيه وأمثاله	٣٤
المقصد السادس: حفظه واجتناب هجره ونسيانه	٤٣
المقصد السابع: تحصيل الأجر بتلاوته	٤٧
المقصد الثامن: التخلُّق بأخلاقه والتأدُّب بآدابه	٥٢
المقصد التاسع: الإنذار به	٥٥
المقصد العاشر: التحصُّن والاستشفاء به	٦٠
المقصد الحادي عشر: الفوز بشفاعته	٦٥
الخاتمة	٦٩
الفهرس	٧٠